

دفاع مختصر عن تاريخ الترجمة

د. غسان لطفي

كلية الآداب و اللغات
جامعة الإخوة منتوري
قسنطينة

ملخص:

تسعى هذه الورقة إلى الإجابة على الأسئلة التالية: ما هي أهمية تاريخ الترجمة بالنسبة للمترجمين والمهتمين بالدراسات الترجمة بشكل عام؟ هل يمكن للمعرفة التاريخية أن تضيف شيئا و تساعد على فهم الترجمة و ترفع من مستوى ممارستها؟ قد يبدو السؤال بديهيا لكنه في الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك: فمن منطلق خبرتنا في تدريس الترجمة بشكل عام و تاريخ الترجمة بشكل خاص، اتضح لنا أن هنالك نوعا من الاتفاق أو الإجماع – سواء أكان ذلك بوعي أم بغير وعي – على أن مقياس تاريخ الترجمة، بل و المقاييس النظرية عموما، ليست إلا مقاييس ثانوية في عملية تدريس الترجمة. وسنحاول أن نبين كيف تساهم المعرفة الجيدة بتاريخ الترجمة كثيرا في خلق مترجم جيد، أي مترجم يعي قيمة ما يفعله أي يفهم ما كان للترجمة و لا يزال من ثقل تاريخي، و يحيط إحاطة كافية بتراث أسلافه من المترجمين من كل الثقافات فيمتلك بذلك طيفا واسعا من الحلول و الممكنات بين يديه و يتحلى بالمرونة الفكرية الكافية لاستكشاف هذه الممكنات دون أن يحبس نفسه فيها.

الكلمات المفتاحية: تاريخ الترجمة، مقياس الترجمة، المترجم، وظيفة الترجمة، أهمية الترجمة.

مقدمة:

تسعى هذه الورقة إلى الإجابة على الأسئلة التالية: ما هي أهمية تاريخ الترجمة بالنسبة للمترجمين والمهتمين بالدراسات الترجمة بشكل عام؟ هل يمكن للمعرفة التاريخية أن تضيف شيئا و تساعد على فهم الترجمة و ترفع من مستوى ممارستها؟ قد يبدو السؤال بديهيا لكنه في الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك: فمن منطلق خبرتنا في تدريس الترجمة بشكل عام و تاريخ الترجمة بشكل خاص، اتضح لنا أن هنالك نوعا من الاتفاق أو الإجماع – سواء أكان ذلك بوعي أم بغير وعي – على أن مقياس تاريخ الترجمة، بل و المقاييس النظرية عموما، ليست إلا مقاييس ثانوية في عملية تدريس الترجمة.

Abstract:

This paper aims at answering the following questions: what is the importance of translation history for translators, translation students, and for all those who are interested in translation? Can a good knowledge of history add something to our understanding of translation and improve our practice? The answer to these questions may seem unproblematic but it is not: Our teaching experience tells us that there is a kind of disparagement (consciously or unconsciously) of history and all the theoretical courses, considered as secondary in translation teaching and training. Thus, we will try to show how a good knowledge of translation history can contribute in producing a good translator, i.e. a translator who is aware of the historical role translation has always played, and has enough knowledge of the various traditions in the different cultures. This awareness provides the translator with a wide range of possibilities and at the same time gives them the intellectual flexibility to explore them without reproducing them in a servile way.

و لأجل ذلك نرى الإجابة على هذه الأسئلة مدخلا لا بد منه لكل من يتصدى لتدريس تاريخ الترجمة. يمكن تفسير هذا الشعور بعدة أسباب: منها وجود نوع من الاحتقار للتاريخ و اعتباره مجرد عرض كرونولوجي للأحداث. و ليس هذا الاحتقار إلا صدق لاحتقار الكثيرين لنظريات الترجمة أو عدم فهمهم لارتباطها العضوي بالفعل الترجمي بحيث أنهم يرون فيها مجرد "ثرثرة" فلسفية منقطعة عن واقع الممارسة و بالتالي لا دور لها فيها.

ضمن هذا الإطار، يُنظر إلى الترجمة على أنها محض ممارسة لا درس تتعلمه من التنظير بل إنها غير قابلة للتنظير أساسا، و يلتقي في هذا المنظور غير الممارسين للترجمة و المترجمون "المحترفون" على حد سواء.

في هذا الصدد، يرى أنطوان بيرمان أن مصطلحي "النظرية" *théorie* و "التطبيق" *pratique* هما في ذاتهما مضللان و يكرسان القطيعة بين المنظرين للترجمة و الممارسين لها، و يفضل عليهما بيرمان مصطلحي "التجربة" *expérience* و التأمل *réflexion* بحيث أن الترجمة هي عبارة عن تجربة و تأمل في التجربة في الوقت نفسه و لا يمكن فصل هذه عن ذلك. و على ذلك، فالنظرية بالنسبة لبيرمان، أو "علم الترجمة" *traductologie* هو "تأمل الترجمة في نفسها انطلاقا من طبيعتها التجريبية"⁽¹⁾.

و لهذا الجهد التأملي فائدته الكبيرة على الترجمة لأنه يخلصها من الطابع الحدسي و الآلي الذي تمارس به، أي أن الترجمة التي لا يصاحبها تأمل و نظر هي "إما ترجمة تتم كيفما اتفق أو تخضع بغير وعي لأحكام عصرها الإيديولوجية"⁽²⁾. و النتيجة المباشرة لما سبق هي أن الترجمة عندما تصبح فعلا تأمليا و تتحرر من الإيديولوجيا التي تحكمها ضمنا تصبح كذلك قابلة للنقل، أي للتدريس. و يعني هذا أن العلاقة بين النظر في الترجمة و تدريسها علاقة وثيقة بل إنه لا تدريس، وبالتالي لا تعلم للترجمة، دون تنظير، من حيث أن كلا من التنظير و التدريس هما خطاب و اصف، رغم وجود اختلافات في طبيعة الخطابين.

و ماذا عن تاريخ الترجمة؟ بالنسبة لبيرمان تاريخ الترجمة هو أحد ثلاثة أعمدة يجب أن يقوم عليها علم الترجمة الحديث، بالإضافة إلى "أخلاقية الترجمة" أي نظريتها و "تحليلية الترجمة" أي نقدها. و يرى بيرمان أن "كتابة تاريخ الترجمة هي أولى مهام نظرية حديثة للترجمة، فكل حادثة ملزمة بأن تكون، لا نظرة ماضوية، بل حركة استبطانية تكون فهما للذات"⁽³⁾. و يعني هذا الكلام أولا أن كتابة التاريخ لا تعني مجرد العودة إلى الماضي من أجل محاولة تطبيق مناهجه تطبيقا حرفيا على الترجمة في الحاضر، بل هي قراءة للماضي انطلاقا من أسئلة الحاضر و محاولة لفهم الحاضر من خلال النظر في الماضي: فعندما يكتب بيرمان تاريخ الترجمة في فرنسا القرن السادس عشر مثلا و يشرح منهجية الترجمة عند مترجمي ذلك العصر و على رأسهم جاك أميو *Jacques Amyot*، فهو يفعل ذلك لكي يفهم من أين و كيف تكونت في فرنسا نظرة معينة للترجمة لا تزال سائدة اليوم إلى حد ما، و تتمثل في "الترجمة المتمركزة عرقيا و اللاحقة نصيا" *traduction ethnocentrique et hypertextuelle*.

هنالك بطبيعة الحال من الباحثين من يرفضون إمكانية دراسة التاريخ و الاستفادة منه في الحاضر، لأنهم يعتبرون أن الماضي مختلفا تماما عن الحاضر و لا يمكنه أن يجيبنا على أسئلتنا: " ليس هدف المؤرخ في الحقيقة أن يستكشف النتائج التاريخية للنظريات أو المشاكل المعاصرة بل أن يكتب عن أشياء منسية تماما و لا علاقة لها بالحاضر البتة، و أن يُخرج تاريخا هو 'حقا ميت' "⁽⁴⁾، لكن هذا الرأي ينتقده مؤرخو الترجمة بشكل عام و يعتبرونه طوباويا، لذلك نقول شهناز طاهر إن "الدراسات

التاريخية للترجمة تتبعث من انشغالات الحاضر و ليس من فضول 'سطحي' للتعرف على شعوب الماضي و على طريقتهم في العيش"⁽⁵⁾

ما الذي يمكن أن نتعلمه من تاريخ الترجمة؟

ثمة إتفاق متزايد اليوم بين الدارسين على أن تاريخ الترجمة مهم جدا في الدراسات الترجمة وأن له فوائد عملية من أجل فهم طبيعة الفعل الترجمة. و يلخص ليفين دولست⁽⁶⁾ Lieven D'hulst هذه الفوائد في الأفكار التالية التي سنستعرضها و نحاول أن نشرحها بأمثلة:

1- "تاريخ الترجمة بشكل مدخلا جيدا للدراسات الترجمة" أي أن التاريخ يعرفنا بالمتترجمين الكبار و منهجهم في العمل و دوافعهم. و يمكن القول إن هذه هي "الدرجة الصفر" في درجات مساهمة التاريخ في دراسة الترجمة، و تتمثل في إخراج المترجمين من الظل، و تحرير الترجمة من النكران التي تقابل به رغم دورها المحوري في بناء الثقافات. فعن أوروبا مثلا، يقول ميشونيك إنها قامت على الترجمات و على محو الترجمات، و من بين مظاهر هذا التناقض أنه "يتم الاعتراف في الكتابات المؤرخة للأدب الفرنسي بأن هؤلاء المترجمين أضافوا كثيرا للغة ثم لا يخصص لترجماتهم إلا حيز ضيق جدا"⁽⁷⁾. و الأمر نفسه يقوله جورج شتاينر: "من يعرف أسماء أبرز مترجمي بيكون أو ديكرات أو لوك أو كانط أو روسو أو ماركس؟ [...] يتكلم الناس عن 'التأثير العظيم' الذي مارسه [رواية] فارتير Waverly، عن الطريقة التي شكلت بها الدورة الروائية في ويفرلي Waverly من جديد و عي أوروبا بالماضي. ماذا بقي من معرفتنا عن ترجموا غوته و والتر سكوت، في حين أنهم هم الرسل الحقيقيون لهذا التأثير؟ [...] إننا [لا] نكتشف من قَرَب إلينا بروس و دوستوييفسكي [إلا] عندما ننتبه إلى أن عملهم بحاجة لأن ينجز مرة أخرى"⁽⁸⁾.

في نص أصبح الآن من الكلاسيكيات، كتب فاليري لاربو، مستهلا مؤلفه عن القديس جيروم و متحدئا عن وضع المترجم و مكانته:

" لا أحد يعرف المترجم، فهو يقبع في الصف الأخير و هو لا يعيش إلا على الصدقات إن جاز لنا القول و لا يأنف من أن ينهض بأحقر الأعمال و أن يؤدي أكثر الأدوار انزواء. 'أن يخدم' هو شعاره و هو لا يبغى شيئا لنفسه فهو يجعل مجده كله أنه أمين لمن اختارهم لنفسه من أسياد، و هو وفي إلى حد إعدام شخصيته الفكرية ذاتها. أن نتجاهله، أن نضن عليه بالتقدير، أن لا نسميه في أغلب الأحيان إلا لكي نتهمه، غالبا دون قرينة، بأنه خان من أراد ترجمة نصوصهم، أن نزدريه حتى عندما نرضى عن عمله، كل ذلك يعني أننا نحتقر أفضل المزايا و أندر الفضائل: نكران الذات، و الصبر بل والبر و تحري النزاهة"⁽⁹⁾.

هذه الكلمات مهمة جدا برأينا، أولا لأنها تصور مكانة المترجم في أذهان الناس و في النسق الثقافي العام (الأوروبي على الأقل) بشكل جيد، و ثانيا لأننا نرى من خلالها الوجه الآخر للعملة، أي المنزلة التي أنزلها المترجم نفسه و الدور الذي رضي أن يؤديه، فعندما يعدد لاربو سجايا المترجم و مزاياه غير المعترف بها: الوفاء إلى حد زوال الشخصية العلمية، نكران الذات... الخ متحدئا باسم المترجم و مرافعا عنه، ما نقرؤه في حديثه هو أن المترجم ممثلا في شخص لاربو يقبل الدور الذي رسم له معالمه الخطاب السائد و في الوقت نفسه يكرسه و يساهم في رسمه أو فلنقل بعبارة أخرى، و بمصطلحات التحليل النفسي، إن هذا الدور

المنزوي المكرس في الخطاب العام، بمحظوراته و مباحاته، انتقل إلى داخل نفس المترجم وأصبح جزءاً من "أنه الترجمة العام". و لننظر إلى التناقض: فاليري لاربو يدافع عن المترجم بهذه الطريقة رافضاً النكران الذي يقابل به ثم يذكر من بين مناقبه نكران الذات ! و عندما نعلم أن لاربو هو نفسه مترجم (بتلر، جويس) نفهم أهمية أن يقرأ المترجمون تاريخ الترجمة و يعرفوا أن المترجمين الكبار لم يكونوا مختلفين منزوين بل على العكس من ذلك تماماً.

2- "تاريخ الترجمة يمنح الدارس المرونة الفكرية اللازمة لكي يكتشف أفكاره مع طرق جديدة في التفكير"، لأن فعل الترجمة ليس فعلاً معزولاً عن العالم: أو لأنه فعل كتابة يؤديه إنسان يعيش في لحظة تاريخية معينة و في ثقافة معينة و يخضع بالتالي لكل ما يخضع له الكاتب من إكراهات واعية و غير واعية، و ثانياً لأن فعل الترجمة، نتيجةً لما سبق، لا يمكن أن يختزل في مجرد العلاقة بين المترجم و النص الأصل بل هو فعل يتم داخل شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية و الثقافية و الأدبية تحكم إلى حد معين عمل المترجم، و هو ما يسميه بيرمان "الأفق الترجمة" ⁽¹⁰⁾ Horizon traductif. و فيما يخص الترجمة الأدبية خصوصاً، فالنصوص المترجمة عندما تنشر تتضمن إلى ما يسميه إيفين زهار Even-Zohar و توري Toury النسق المتعدد الأدبي ⁽¹¹⁾ Literary Polysystem الذي هو بدوره جزء من نسق متعدد ثقافي أكبر. و يعني هذا أن معرفة تاريخ الترجمة تتيح لنا أن نلقي نظرة عميقة على علاقة الأفراد و الثقافات باللغة و الأدب و السلطة و الآخر بمختلف أشكاله، بل إنه "يستحيل الفصل بين هذا التاريخ و تاريخ اللغات و الثقافات و الأدب، بل و تاريخ الديانات و الأمم. لكن هذا لا يعني الخلط بين كل ما سبق، بل أن نبين كيف أن ممارسة الترجمة، في كل مرحلة أو في كل حيز تاريخي معين، تتم فصل مع ممارسة الأدب و اللغات و مختلف المبادلات بين الثقافات و اللغات" ⁽¹²⁾ فتاريخ الترجمة هو إذاً كذلك من أهم المفاتيح لفهم التاريخ العام لأمة ما.

3- "تاريخ الترجمة يدفع إلى مزيد من الانفتاح تجاه طرق في التفكير تطرح مشاكل الترجمة طرحة غير اعتيادية" بمعنى أننا نفهم من خلال معرفة التاريخ أن مشهد الترجمة ليس متجانساً أبداً بل هو شديد التعدد و أن هنالك مدارس مختلفة و ممارسات مختلفة و أيضاً خصومات حادة حول الطريقة الفضلى للترجمة و هي كثيرة، منها - مثلاً لا حصراً - الخصومة حول ترجمة هوميروس في فرنسا القرن الثامن عشر و إنكلترا القرن التاسع عشر، و حول ترجمة شكسبير في فرنسا و ألمانيا و حول ترجمة الكتاب المقدس... الخ.

4- "يمثل تاريخ الترجمة وسيلة فريدة من نوعها تقريباً لفهم شمولي للترجمة، من خلال التقريب بين الماضي و الحاضر و تبيين نقاط التوازي و التقاطع بين مختلف المدارس الفكرية و الممارسات [الترجمية]". و يعني هذا أن الممارسات و "النظريات" الترجمة، حتى تلك التي تبدو فيما بينها متعارضة، قد تلتقي في عدد من أوجهها أو في بعض أسسها الفلسفية و الجمالية: فالرومانسيون الألمان مثلاً اختلفوا مع الكلاسيكية الفرنسية في نظرتهم للترجمة من حيث أنهم استعملوا لغة شعرية شديدة الغموض عكس الكلاسيكية التي بنت نظريتها الجمالية على اللغة الواضحة و العقلانية و "النبيلة"، و رغم ذلك فقد التقى المذهبان في أن كليهما استخدم لغة مصطنعة مقطوعة الصلة بتلك التي يتكلمها عامة الناس. و غير ذلك من الأمثلة كثير، و على ذلك يقول ميشال بالار: "إن تاريخ الترجمة يصنع تعایش أصدقاء يغذي فيما

يبدو أحدهما الآخر⁽¹³⁾. من جهة أخرى، ما نكتشفه من مقابلة أفكار الماضي بنظريات الحاضر هو أن النظريات الترجمة الحديثة لم تولد من فراغ بل تستمد عددا من أفكارها وتأثيراتها من أفكار الماضي، أي أن النظريات الحديثة تقوم على أرضية تاريخية وبالتالي فلا بد من تاريخ الترجمة لفهم نظريات الترجمة فهما صحيحا.

5- "تاريخ الترجمة يمنح للمترجمين إمكانية أن ينهلوا من نماذج الماضي"، أي أن ممارسي الترجمة قد يجدون عند نظرائهم من الماضي حولا لبعض المشاكل التي يواجهونها اليوم وقد يتعلمون من مناهجهم و طرائقهم في الترجمة، و لذلك تبقى بعض الترجمات مثل ترجمة مارتن لوثر للكتاب المقدس إلى الألمانية و ترجمة شاتوبريان للفردوس المفقود إلى الفرنسية و ترجمة سليمان البستاني للإلياذة إلى العربية... الخ أعمالا يُرجع إليها رغم النقص التي يمكن أن تؤاخذ بها. و لا يعني هذا الكلام أن مترجمي اليوم سيستسخون حلول أسلافهم فهذا غير ممكن لأن لكل نص نسقه الخاص من الإكراهات التي يفرضها على مترجمه، و لكل لغة نترجم إليها إمكاناتها و حدودها حتى و لو كان النص الأصل هو نفسه، و حتى يتعلّق الأمر بترجمة جديدة للنص نفسه إلى لغة الترجمة نفسها، فسيظل استنساخ الحلول مستحيلا، لأن حدود اللغة و إمكاناتها تختلف من زمن لآخر و لأن الترجمة الجديدة تتم في أفق مغاير لسابقاتها. فترجمات الماضي هي إذاً مصدر استيحاء و استلهام أولاً، و هي دليل على أن ماهية الترجمة متعددة و ليست واحدة.

6- تاريخ الترجمة يساعد على تأسيس "ثقافة الترجمة" *culture de traduction*. و هذه مسألة مهمة جدا. فما هي ثقافة الترجمة؟ هي التوجه العام في بلد ما إلى حماية الترجمة و تغذيتها و تعهدها بالرعاية لكي تزدهر و تتطور، و هي الوعي بأهمية الترجمة و بدورها المحوري في إثراء ثقافة ما ولغتها و آدابها و علومها، بل الوعي بدورها التأسيسي في كل هذه المجالات بهذا المعنى، يقول أنطوان بيرمان إن الثقافة الفرنسية مثلا ليست اليوم ثقافة ترجمة بالنظر إلى وضع المترجمين المادي و الأدبي و القانوني و إلى غيابهم في مؤسسة مرموقة كالأكاديمية الفرنسية، بخلاف الفترة الممتدة ما بين القرنين الرابع عشر و السادس عشر عندما كانت فرنسا، ممثلة في السلطة السياسية و النخبة الثقافية، تعترف بدور الترجمة و كان المترجمون من أمثال جاك أميو ينالون المكانة التي يستحقونها. من هنا أهمية تاريخ الترجمة: فعندما نعي نحن اليوم دور الترجمة في إثراء اللغة و الثقافة و الأدب و العلوم... الخ تتغير نظرتنا لها سواء أ كنا من المهتمين بدراسة الترجمة أو من خارج هذه الدائرة، قراء و نقادا... الخ. من أجل ذلك نقول شهناز طاهر إن ثقافة الترجمة "تشمل الباحثين و المترجمين و القراء على السواء و هو ما سيعزز بدوره مهنة الترجمة"⁽¹⁴⁾.

من جهته، يرى جان دوليل أن تاريخ الترجمة مهم لعدة أسباب أخرى من أهمها الكشف عن "الوظائف التاريخية" التي أدتها و تؤديها الترجمة، و هي عديدة نذكر منها ما يلي:

أ- الوظيفة التكوينية *Fonction génétique* أي دور الترجمة في تشكيل اللغات و بلورتها و الأمثلة على ذلك كثيرة كفضل ترجمات أورزم و أميو على الفرنسية و ترجمة لوثر للكتاب المقدس على اللغة الألمانية. و يتم ذلك من خلال إثراء اللغات بالمصطلحات من كل الأنواع، من التقنية و العلمية إلى الفلسفية و اللاهوتية... الخ.

ب- الوظيفة الأسلوبية *Fonction stylistique* أي دور المترجمين في إثراء لغاتهم بوسائل تعبيرية وأسلوبية و تراكييب من اللغات الأجنبية: فالكتابة العربية مثلا تخلصت من النزعة المفرطة إلى استعمال الجناس و السجع و سائر أنواع البديع بفضل مترجمي النهضة الذين نقلوا الآداب الأوروبية. هذه الوظيفة - برأينا - مهمة جدا لنفهم تأثير الترجمة البالغ و دورها في صناعة الفكر الإنساني: فإثراء اللغة لا يكون فقط على المستوى المعجمي، بل أيضا على المستوى التركيبي، مستوى الكتابة، و هو ما فعله مترجموا العصور الوسطى في فرنسا (و على رأسهم نيكولا أورزم) الذين ساهموا مساهمة حاسمة في خلق "النثر الأساسي" *prose essentielle* للغة الفرنسية، أي الوسيط *medium* الذي تكتب به النصوص على اختلاف أنواعها في ثقافة ما⁽¹⁵⁾. و على ذلك فالمترجمون هم شرط وجود الكتاب والمفكرين، و لأجل ذلك قال مؤرخ الأدب الفرنسي الكبير غوستاف لانسون عن ترجمة جاك أميو لبلوتارك إنها "جعلت من مونتaigne أمرا ممكنا"⁽¹⁶⁾.

ت- الوظيفة الأدبية *Fonction littéraire* و هي قريبة من سابقتها لأنها تشير إلى دور المترجمين في إدخال أجناس أدبية إلى آداب لم تكن تعرفها و من ذلك مثلا مترجمو النهضة العربية في القرن التاسع عشر الذين أدخلوا إلى الأدب العربي الرواية و المسرح. و ثمة مثال آخره السونيتة *sonnet* الذي يرتبط إلى حد كبير باسم ويليام شكسبير الذي لم يكن ليقرض هذا الجنس الشعري ويكرسه لولا من سبقه من المترجمين الذين ترجموا إلى الإنكليزية سونيتات بتراركا و رونسار.

ث- الوظيفة التأويلية *Fonction Interprétative* بحيث أن الترجمات المتعاقبة للنص الواحد يُلقى كل منها على النص ضوءا جديدا لأن كل ترجمة هي عبارة عن قراءة للنص، أي تأويل له، يبقى مع ذلك تأويلا جزئيا، لذلك يقول ماركو فيتز مترجم دوستوفسكي: "الكاتب الأجنبي هو مجموع ترجماته السابقة و الحاضرة و اللاحقة"⁽¹⁷⁾. و تبعا لذلك، فدراسة ترجمات نص ما هي أداة إجرائية و منهجية مهمة لدراسة تاريخ التلقي الأدبي و بالتالي رافدا مهما لتاريخ الأدب. و يجدر بالذكر أن الوظيفة التأويلية للترجمة تتعدى بكثير مجال الأدب و تلقيه، و لنقرأ ما يقوله جورج شتاينر في هذا المضمار: "إلى أي حد ارتبط تطور المصطلحات الرئيسية في مجالات الفلسفة و العلوم الطبيعية و علم النفس بالترجمات المتعاقبة لتعريفاتها الأولى أو المعيارية؟ إلى أي حد يمكن اعتبار تطور الأفلاطونية الغربية و صورة 'العقد الإجتماعي' [و هو مصطلح جان جاك روسو الشهير] و الجدلية الهيجلية في الإيديولوجيات الشيوعية نتيجة لترجمات موجهة أو غير دقيقة أو خاطئة كليا؟"⁽¹⁸⁾. و يؤكد هذا الكلام أهمية تاريخ الترجمة المحورية لفهم التاريخ و بالتالي لفهم الحاضر، فالترجمة هي سبب انتشار أو اختفاء أو تحريف أفكار و إيديولوجيات كبرى أثرت فينا و ساهمت إلى حد ما في تكوين نظرتنا للأشياء، أو تحديدا في "عدم رؤيتنا" للأشياء: فعندما ترجم متى بن يونس القنائي كتاب أرسطو **البوطيقا** ترجم كلمتي "قوموديا" و "طراقوديا" بالمدح و الهجاء بدلا من المقابلين اللذين صاروا معروفين اليوم: الملهاة و المأساة، و حرم بذلك متى بن يونس، كما يقول عدد من المؤرخين، الأدب العربي من معرفة المسرح في شكله الغربي، بسبب خطأ في الترجمة⁽¹⁹⁾.

ج- الوظيفة الهويتية *Fonction identitaire* أي أن الترجمة قد "تغذي و عي شعب ما بهويته أو توظف حماسه القومية أو تنمي شعوره الوطني" و لعل المثال الناصع نجده في ألمانيا الرومانسية: فلقد نظر الرومانسيون إلى الترجمة لا بوصفها سبيلا إلى معرفة الأنا من خلال

الأخر فحسب، بل إلى تأسيس ثقافة قومية ألمانية متحررة تماما من هيمنة الأخر الثقافية واللسانية. و الآخر في هذه الحالة هو فرنسا التي كانت تهيمن ثقافيا على ألمانيا و تحتل جزءا من أراضيها. و لذلك كان فريديريك شلايرماخر يرى - في مفارقة - أن ترجمة الكتب الفرنسية هي الوسيلة الوحيدة لإنهاء هيمنة الثقافة الفرنسية من خلال الكف عن القراءة بهذه اللغة⁽²⁰⁾.

ح- الوظيفة الوقائية Fonction Palliative و المقصود بها هي أن الترجمة ساهمت في حماية الكتاب من الرقابة، سياسية كانت أم دينية، بحيث أنها قد تكون طريقا "أمن" لتمرير أفكار عن الحرية والديمقراطية، ومن ذلك ترجمة الأدب الأمريكي في إيطاليا الفاشية. كما أن الترجمة قد تسمح للأقليات المستبعدة من مجال الكتابة بأن تجد لنفسها مكانا فيه، و تلك كانت حال الأدبيات في أوروبا لمدة طويلة.

خ- الوظيفة الديمقراطية Fonction démocratique أي دور الترجمة في نقل المعارف و تعميمها على الناس و تقريبها لهم، سواء أكانت هذه المعارف "دنيوية" أم حتى دينية. و لعل أبرز مثال على ذلك هو الصراع الطويل الذي دار في أوروبا لمدة قرون بشأن ترجمة الكتب المقدسة من اللاتينية إلى "اللهجات" المحلية vernaculaires التي ستصبح بعد ذلك - و بفضل الترجمات تحديدا - اللغات الأوروبية الكبرى كما نعرفها اليوم. و يبين لنا التاريخ أن الصراع كان عنيفا ودمويا⁽²¹⁾، تحديدا لأن ترجمة الكتب المقدسة مثلت تهديدا، بل تقويضا، لسلطة رجال الدين فلقد حرمتهم من حقهم "الحصري" في تفسير النص.

هكذا، يستمد تاريخ الترجمة أهميته من أهمية الترجمة ذاتها باعتبارها أحد أهم أشكال العلاقة بين الثقافات، بل "نموذج"⁽²²⁾ paradigm الفهم و التواصل لأنها تجربة فريدة تنتج معرفة مستقلة و في الوقت نفسه على مفترق الطرق بين عدد كبير من المجالات و المباحث دون أن تكون مجرد فرع تابع لأي منها. و تبعا لذلك، فتاريخ الترجمة هو نفسه ينصب على مجالات عديدة منها تلك التي كتبت عنها دراسات كثيرة أو قليلة، مثل التاريخ العام للترجمة أو تاريخها في بلد أو ثقافة ما أو سير المترجمين (أو المترجمات) أو تاريخ ترجمة النصوص الكبيرة (كالكتب المقدسة) أو تاريخ نظريات الترجمة... الخ. و منها تلك التي يقول المؤرخون إنها لم تحظ بعد بالاهتمام الكافي و منها:

1- الترجمة في الممارسة اليومية
2- الترجمات المزعومة pseudotranslations أي النصوص التي تقدّم على أنها ترجمات و هي ليست كذلك (و من الجدير بالذكر أن ثريانتس يقدم روايته دون كيخوته على أنها ترجمة لمخطوط عربي). و لقد تفردت الدراسات الوصفية للترجمة Descriptive Translation Studies بأنها لم تهمل هذا النوع من "الترجمات" في مدونة بحثها، إذ يقول جدهون توري: "هذه النصوص [الترجمات المزعومة] لا يمكن أن ننظر إليها إلا على أنها ترجمات نصوصها الأصلية مجهولة لكن الحال هي أن الكثير من الترجمات الحقيقية يسري عليها نفس الكلام و لا سبيل للتمييز بين الصنفين"⁽²³⁾.

3- تلقي الترجمات من قِبَل القراء العاديين: أي معرفة كيف قراء القراء من غير المتخصصين في الأدب و النقد و الترجمة... الخ الترجمات و هل حكموا لها أم عليها؟ هؤلاء القراء هم في الحقيقة من تكتب لهم النصوص، أصلية كانت أم مترجمة. و ليست دراسة التلقي بالأمر الهين إذ كيف يمكن أن نعرف رأي القراء العاديين بينما فعل القراءة هو فعل فردي و حميمي بين

القارئ والنص؟ هذا الإشكال واجهه أيضا تاريخ الأدب: فعندما أسس المؤرخ و الناقد الألماني هانز روبرت يابوس لتاريخ للأدب مبني على دراسة تاريخ التلقي⁽²⁴⁾ كانت نقطة انطلاقه النظرية هي الاعتماد على تجربة القراء العاديين فالنصوص "لم تُكتب لفقاء اللغة" على حد تعبيره، لكنه انتهى إلى تبني مفهوم "نخبوي" عن القارئ انحصر في الكُتاب و النقد⁽²⁵⁾.

4- الترجمات المعادة retraductions-retranslations يعتبر أنطوان بيرمان، أن الترجمة المعادة هي مجال ترجمي قائم بذاته⁽²⁶⁾ لأن الترجمات المعادة هي وحدها التي يمكنها أن ترتقي إلى مرتبة الأثر الأدبي الذي يحتل مكانته بين الآثار الأدبية الأصلية، عكس الترجمات الأولى التي لا تعدو أن تكون ترجمات - مقدمات traductions - introductions لها أهميتها دون شك. و لذلك فكتابة تاريخ الترجمات المعادة مهم جدا لأنه يزودنا بمعرفة عن "الترجمات العظيمة" التي نظمت إيقاع تاريخ الترجمة العام و مثلت منعطفاته الرئيسية من حيث أنها صارت نموذجا لا يمكن تجاهله، ومن ذلك ترجمة أميو بلوتارك و لوثر للكتاب المقدس و أنطوان غالان لألف ليلة وليلة.

5- الترجمات بالوساطة mediated translations وهي الترجمات التي تتم من خلال لغة وسيطة كترجمة سامي الدروبي لأعمال دوستوفسكي الكاملة عن إحدى ترجماته الفرنسية. و يحفل تاريخ الترجمة بأمثلة شهيرة: فلقد ظلت ترجمة القرآن في أوروبا لمدة طويلة تتم من خلال ترجمة روبرتوس كيتينينسوس اللاتينية و كذلك الحال مع نسخة سان جيروم اللاتينية للكتاب المقدس و بلوتارك أميو و ترجمة غالان للحكايات العربية... الخ. و إن لم تعد الترجمة بالوساطة تمارس كثيرا في العالم اليوم (حتى و إن لا يزال المترجمون العرب ينقلون النصوص عبر لغة غير لغتها و تكون غالبا الإنكليزية أو الفرنسية) فإن دراسة تاريخها يمكن أن يقدم معلومات ثمينة جدا عن علاقات التأثير و التأثر و الهيمنة السياسية و الثقافية بين اللغات و الثقافات، فاللغة التي تتخذ دور الوسيط لدى ترجمة النصوص تحتل مكانة مميزة لدى الثقافة المترجمة.

خاتمة:

حاولنا في هذه الورقة إذاً أن نرفع عن تاريخ الترجمة و نشرح أهمية تدريسه و ضرورة إنزاله المنزلة التي يستحقها في مناهج تعليم الترجمة، و عملنا في سبيل ذلك على تبيان كيف أن المعرفة الجيدة بتاريخ الترجمة تساهم كثيرا في خلق مترجم جيد، أي مترجم يعي قيمة ما يفعله و يحيط إحاطة كافية بتراث أسلافه من المترجمين من كل الثقافات فيمتلك بذلك طيفا واسعا من الحلول و الممكنات بين يديه و يتحلى بالمرونة الفكرية الكافية لاستكشاف هذه الممكنات دون أن يحبس نفسه فيها. و على ذلك، فمن المهم في رأينا أن يكون لتاريخ الترجمة مكانة محورية في أي منهاج لتدريس الترجمة، سواء على مستوى الليسانس أو مستويات ما بعد التدرج، سواء باعتباره مقياسا قائما بذاته أم باعتباره جزءا من مقاييس أخرى، كنفذ الترجمات أو مقياس الترجمة نفسه، و بُعدا محوريا فيها.

المراجع:

- غنتسلر، إدفين: *في نظريات الترجمة. اتجاهات معاصرة*، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح، المنظمة العربية للترجمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009
- كليلطو، عبد الفتاح: *لن نتكلم لغتي*، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، 2002
- Bastin, George L. and Bandia, Paul, F. (eds): *Charting The Future of Translation History. Current Discourse and Methodology*, Ottawa: University of Ottawa Press, 2006
- Berman, Antoine: *Jacques Amyot traducteur français, essai sur l'origine de la traduction en France*, Editions Belin, 2012
- Berman, Antoine: *La traduction et la lettre ou l'auberge du lointain*, Editions du Seuil, 1999
- Berman, Antoine : *Pour une critique des traductions. John Donne*, Editions Gallimard, 1995
- Berman, Antoine: « La retraduction comme espace de traduction », *Palimpsestes* n°4, Retraduire, Publications de la Sorbonne Nouvelle, Octobre 1990
- Berman, Antoine : « La traduction et la langue française », *Meta*, Vol. 30, n°4, p. 341-342
- Berman, Antoine: *L'épreuve de l'étranger. Culture et traduction en Allemagne romantique*, Editions Gallimard, 1984
- Delisle, Jean : « L'Histoire de la traduction : Son importance en traductologie, Son enseignement au Moyen d'un Didacticiel Multimédia et Multilingue », *FORUM*, Vol. 1, N°2, Octobre 2003
- Jauss, Hans Robert : *Pour une esthétique de la réception*, traduit de l'allemand par Claude Maillard, préface de Jean Starobinski, Editions Gallimard, 1978
- Kalinowski, Isabelle : « Hans-Robert Jauss et l'esthétique de la réception. De 'l'histoire de la littérature comme provocation pour la science de la littérature' (1967) à 'Expérience esthétique et herméneutique littéraire' (1982) », *Revue germanique internationale*, 1997
- Larbaud, Valéry : *Sous l'invocation de Saint Jérôme*, Gallimard, 1997
- Meschonnic, henri (1999) : *Poétique du traduire*, Verdier
- Millán, Carmen and Bartrina, Francesca (eds.) *The Routledge Handbook to Translation Studies*, Routledge, London and New York, 2013, pp. 131-144

- Ricoeur, Paul : « Le paradigme de la traduction », *Le Juste 2*, Editions Esprit, 2001
- Steiner, George : *Après Babel. Une poétique du dire et de la traduction*, traduit de l'anglais par Lucienne Lotringer et Pierre-Emmanuel Dauzat, Albin Michel
- Toury, Gideon (1995) : *Descriptive Translation Studies and Beyond*, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelphia
- Venuti, Lawrence : “Genealogy of Translation Theories: Schleirmacher”, *TTR*, vol 4, n°2, 1991, pp. 125-150

- (1)-Berman, Antoine: *La traduction et la lettre ou l'auberge du lointain*, Editions du Seuil, p 17
- (2)-Berman, Antoine: *Jacques Amyot traducteur français, essai sur l'origine de la traduction en France*, Editions Belin, 2012, p 13
- (3)-Berman, Antoine: *L'épreuve de l'étranger. Culture et traduction en Allemagne romantique*, Editions Gallimard, p 12
- (4)-Ginzburg, cité in Sergia Adamo : "Microhistory of Translation", in George L. Bastin and Paul F. Bandia (eds) *Charting The Future of Translation History. Current Discourse and Methodology*, Ottawa: University of Ottawa Press, 2006, pp. 81-101. (P 91)
- (5)-Gürçaglar, Sehnaz Tahir : « Translation History », in Millán, Carmen and Bartrina, Francesca (eds.) *The Routledge Handbook to Translation Studies*, Routledge, London and New York, 2013, pp. 131-144. (P. 134)
- (6)-In Delisle, Jean : « L'Histoire de la traduction : Son importance en traductologie, Son enseignement au Moyen d'un Didacticiel Multimédia et Multilingue », in *FORUM*, Vol. 1, N°2, Octobre 2003, PP. 1-16 (pp. 1-2)
- (7)-Meschonnic, Henri (1999) : *Poétique du traduire*, Verdier, p. 40.
- (8)-Steiner, George : *Après Babel. Une poétique du dire et de la traduction*, traduit de l'anglais par Lucienne Lotringer et Pierre-Emmanuel Dauzat, Albin Michel, pp. 370-371
- (9)-Larbaud, Valéry : *Sous l'invocation de Saint Jérôme*, Gallimard, 1997, p 9 (nous soulignons)
- (10)-Berman, Antoine : *Pour une critique des traductions. John Donne*, Editions Gallimard, 1995
- (11)- ينظر في ذلك: إدفين غنتسler، في نظريات الترجمة. اتجاهات معاصرة، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح، المنظمة العربية للترجمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009،
- (12)-Berman, Antoine : *L'épreuve de l'étranger*, op. cit. p. 12-13
- (13)-Ballard, Michel: *De Cicéron à Benjamin. Traducteurs, traductions, réflexions*. Presses universitaires de Lille, 1992, p 262.
- (14)- "Translation History" ..., Op. Cit, p 134
- (15)-Berman, Antoine, *Jacques Amyot...*, op. cit, p. 42-43
- (16)-Cité in Antoine Berman, « La traduction et la langue française », in *Meta*, Vol. 30, n°4, p. 341-342, p 341.

- (17)-André Markowicz, cité in : Delisle, Jean, *L'Histoire de la traduction...*, Op. cit, p 3
- (18)-Steiner, George : *Après Babel...*, Op.cit p. 371
- (19)-يرى عبد الفتاح كيليطو في الأمر رأيا آخر "هل حقا كان [متى بن يونس] يجهل ما يقصده أرسطو بالطراغوديا و القوموديا؟ ومن يدري ! لعله كان على علم تام بدلالاتهما و لعله تعمد ترجمتهما بالمديح و الهجاء لحاجة في نفسه" (لن نتكلم لغتي، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، 2002، صص 113-114). و مهما يكن، يبقى دور الترجمة حاسما باعتبارها مصفاة Filtre للأفكار و المصطلحات و تبقى بذلك معرفة تاريخ الترجمة حاسمة هي الأخرى.
- (20)-Cf. Venuti, Lawrence : "Genealogies of Translation Theory: Schleirmacher", *TTR*, vol. 4, n°2, pp 125-150
- (21)-تقدم لنا بريطانيا نموذجا جيدا عن دموية هذا الصراع: فلقد لقي جون هوس J. Hus و ويليام تيندايل W. Tyndale حتفهما حرقا، كما لم تسلم جثة جون ويكلييف J. Wycliffe التي أخرجت من قبرها و أحرقت. أنظر في ذلك مثلا:
- Ellis, Roger : "Figures of English Translation, 1382-1407", in Roger Ellis and Liz Oakley-Brown (ed.), *Translation and Nation. Towards and Cultural Politics of Englishness*, Multilingual Matters LTD., Clevedon-Buffalo-Toronto-Sydney, 2001, pp. 07-48
- (22)-Ricoeur, Paul : « Le paradigme de la traduction », in *Le Juste 2*, Editions Esprit, 2001
- (23)-Toury, Gideon (1995) : *Descriptive Translation Studies and Beyond*, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelphia, p. 40
- (24)-Jauss, Hans Robert : *Pour une esthétique de la réception*, traduit de l'allemand par Claude Maillard, préface de Jean Starobinski, Editions Gallimard, 1978
- (25)-Kalinowski, Isabelle : « Hans-Robert Jauss et l'esthétique de la réception. De 'l'histoire de la littérature comme provocation pour la science de la littérature' (1967) à 'Expérience esthétique et herméneutique littéraire' (1982) », *Revue germanique internationale*, 1997, pp. 151-172
- (26)-Berman, Antoine: « La retraduction comme espace de traduction », in *Palimpsestes* n°4, Retraduire, Publications de la Sorbonne Nouvelle, Octobre 1990, p. 1-7